يقول العقلاء أن الإنسان لايرضى عن شيء فى الحياة قسم له إلا نوع العقل الذى وهبه الله ، فلن تجد من يشكو من حمقه أو عته أو ضعف عقله . . .

ولعل ما قالوه حق كله ، ولعله من بعد ذلك من ميزة العقلاء أنفسهم ، أما أنا وأمثالى من خلق الله الذين يعرفون قدر أنفسهم فلا أرى ضيراً من الإعتراف بهذا النقص الذى أحسه فى عقلى . . .

فلقد حاولت مراراً لا عد لها أن أثبت لنفسى أننى متمتع بقوة فى الإدراك لا تقل عن أى شخص عادى من هؤلاء الناس الذين أعيش بينهم ، ولكنى كنت أفشل دائما ، لأننى لا أستطيع الوصول إلى ما يصلون إليه من نتائج يجمعون على صحتها .

لقد كان لنا صديق يجتمع إلينا فى كل حين ولكنه اختفى عنا فى أحد الأيام وطال اختفاؤه حتى أتانا صديق آخر يخبرنا أننا لن نرى بعد اليوم الصديق المعهود ، لقد مات . . فى حادث مفجع فقد خسر ثروته فى إحدى المضاربات المالية ولم يحتمل شدة الصدمة فأفرغ رصاص مسدسه فى رأسه وانتهى بذلك . .

أما أنا فلم يهزنى الخبر ، وكنا بحديث انقطع بهذا الصديق فحاولت استئنافه ولكن زملائى نظروا إلى نظرة نكراء وقد لبسوا أقنعة من الألم والحسرة ، وأخذوا يحوقلون ويرجعون . . « ياالله هذا الصديق العزيز كيف مات وهو فى ريعان الصبى . . ومن لنا بمن يملؤ فراغه . . ولمن لدينا مثله مخلصاً محباً » إلى غير ذلك من عبارات لم أفهم لها معنى . . فقد مات وانقضى . ولا أدرى ماذا ينتفع المسكين بهذه العبارات أما الذى أدريه ، فهو أن الجو اللطيف الممتع الذى كنا فيه قد اكفهر ، وإننى بدأت باحتقار بعض الحاضرين الذين كانوا منذ أيام قلائل ينعتون المتوفى بشتى النعوت التى لا أحب أن أنعت بها قط . . ووجدتنى مضطراً أن أنطوى على نفسى وأفكر بدورى فى شيء . . أى شيء . . ولكن عقلى الصغير لم يستطع التفكير إلا فى هذه المشكلة التى أقامها صديقنا الراحل . . لقد مات . . وعلينا نحن الأصدقاء أن نحزن لموته . . سألت عقلى : لماذا ؟ فخيل إلى أنه يبتسم ثم خيل إلى أنه يقول :

دع هذا لغيرك : أما أنت فلا تكلف نفسك عناء هل تظن أنك لو حزنت على هذا أو ذاك سينالك قليل أو كثير أو ينالك أنت كثير أو قليل ! ؟ ثم هب أن الناس فى هذا العالم العريض قد أجيبوا إلى رغباتهم فلم يقبض الموت منهم من يحبون . فماذا ترى العالم يصير ؟ ثم هذا الذى تحبه أنت فتتمنى له عمر الأبد ، ألا تظن أن هنالك من يتمنى أن يختصر فى طرفة عين ، ولو قال لك شخص تحبه أنه سيعيش الدهر كله هل أنت مصدقه ؟ فمالك إذن إذا مات تستنكر موته ؟ ألا تدرى أن الحياة ليست إلا كالساقية التى تراها تدور فى الريف لا يمتلىء بعض دلائها إلا فرغ الآخر ، وعندما تدور الساقية فان الدلو الأعلى لا ينزل إلى أسفل إلا بعد أن يفرغ جميع مائه ، وهكذا الإنسان إذا مات فاعلم أنه لم يبق منه خير للأرض ولا بد أن تدور الساقية لكى تزدهر الأرض . وقد كان الناس منذ خلقت البسيطة يموتون ، وسيستمر هذا التقليد فى الحياة إلى الأبد ، ويانكبة العالم لو نجح هؤلاء التعساء المكدودين فى تخليد الانسان أو إطالة عمره فازدحم عالمنا بملايين من الظهور المنحنية والركب المتصاكة والأيدى المرتعشة ، وهيهم أداموا للإنسان شبابه وحيويته فغدا كالحقيقة لا تزيدها الأيام إلا قوة . . أما ترى الناس وقد تكاثروا حتى ملؤا أطباق الأرض فاعلين؟ إن بصيرتى المتواضعة لن تجد حلا لمثل هذا الموقف إلا أن يأكل الناس بعضهم بعضاً ، وما أظن الناس ألا يفضلون أن تأكل أجسامهم الديدان بعد موتهم على أن يفترسهم إنسان كاسر . . .

ياله من عقل معتوه . . .

معتوه